

هكذا كانت الوحدة... في سيرة الرسول الأعظم (ص)!



الوحدة هي جوهرة ثمينة و قضية هامّة و استراتيجية و لها اهداف قيّمة حيث سعى الرسول الأعظم - ص - و منذ ثلاث و عشرين عاماً في سبيل تكوينها و تعميقها بين الناس في كلّ مكان و هذه هي وحدة فكريّة عقائدية و ثقافية ؛ و ذلك خلال بعثته الإلهية في مكة المكرمة و المدينة المنورة و قد نظّم - ص - مختلف شؤون الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية على هذا المنهج القيّم.

و سنسلط الضوء هنا حول كيفية نشوء الوحدة الإسلامية في عصر النبوة و الخطوات التي قام بها الرسول الأعظم - ص - في حركته الرساليّة لتشديد صرح هذه الوحدة.

قال ا - ع و جل- في القرآن الكريم:

{كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و ا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}

الحجر الاساس للدعوة المحمدية هو الوحدة بين الأمة و بين الشعوب العالمية حيث انّ النبي - صلى الله عليه و آله و سلم - منبعث من الله الواحد الذي يتمحور حوله كل شئ و إنّه - ص - دعا الناس إلى الطاعة و الانقياد أمام ربّ العالمين كما نزلّ عليه الآية الكريمة التالية في مكة المكرمة:

{قل يا ايها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات و الارض لا اله إلا هو يحيى و يميت فأمنوا بالله و برسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و بكلماته و اتبعوه لعلكم تهتدون}

المخاطب في الآية جميع الناس على وجه الارض من الأحمر و الأسود و الأبيض و ... و التفاتهم إلى خالقهم الوحيد الذي بيده حياة الأشياء و مماتها ، ثمّ ان الله - عزوجل - يطلب منهم الالتزام و الاعتقاد بما صدّق الرسول و اتباع كلمته . فتدعو الناس من الجنسيات المختلفة إلى ترك العصبية و العنصرية الفاسدة التي انهمكت و انغمرت إلى تخيلات واهية فأهلكت أسرة العرب حينما طلبت عليهم الحروب الداخلية بين القبائل و بين الآحاد منهم سنوات عديدة ظل العار.

القرآن الكريم

نزول الآيات الكريمة في بداية الرسالة في أم القرى و استمرارها في المدينة خلال ٢٣ سنة، تحكى عن تنظيم و تشكيل مجتمع واحد من الناس باسم «أمّة واحدة» على الأرض من الأجيال المتقدمة و المتأخرة و أراد أن يعطى زمام هذه الأمّة إلى رب العالمين و خالق الكونين الذي بيده ملكوت كل شئ و له سلطنة كاملة تشمل حياة الموجودات و مماتها و حركاتها و سكونها من البداية إلى النهاية، و حيث تقاد هذه الأمّة بالقوانين الصادرة من المبدأ الأعلى تنتهي حركتهم إلى الكمال المطلق و هو الوصول إلى الله - عزوجل - و السعادة الأبدية. هذا من جهة و من جهة أخرى أن القرآن الكريم يكرم و يؤيد ما صدر من الأنبياء و الرسل الالهية و يذكرها بالبر و الإكرام و أراد أن يجتمع تحت لواء واحد و كلمة واحدة و هي التوحيد و العبودية أمام ربّ العالمين و خالقهم و رازقهم و مبدئهم و معيدهم

فعلى هذا يقول الله - عزوجل - في كتابه العزيز:

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}

و ايضاً يقول - عزّ من قائل- فى آية أخرى:

{يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

فعلى هذا للقرآن دور خاص و مميّز لتنظيم «الوحدة بين الامم» و تطهيرهم عن العنصرية الفاسدة الّتى تنتهى الى فوارق موهنة و استثمار الطوائف و الاختلاف فى اللون و الجنس و الحدود الجغرافية و بالتالى اختلاف فى العيش من بلد الى بلد آخر كما نرى هذه الهتافات من الرأسمالية و الاشتراكية فى الغرب و الشرق...

قال ابن جرير - عز و جل - :

{يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}

هذه الآية نموذج من دعوة القرآن لتوحيد الكلمة والاتّحاد.

سقوط التمييز العنصري

أجاب دعوة الرسول - ص- رجال و نساء من أجناس مختلفة و بلاد بعيدة كما رواه المجاهد قال : أوّل من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله (ص)، ابوبكر ، خبّاب ، صهيب ، بلال ، عمار ، سميّه (أمّ عمّار)

و كذا رواه احمد بن حنبل سند اخر عن ابن عباس و اضاف فيه : أوّل من أسلم بعد خديجه على بن ابى طالب (ع) .

فهؤلاء الرجال كل واحد منهم من بقعه خاصه و بعيده ، جذبه النبى (ص) فنرى انّ بلال حبشى و صهيب رومى و خبّاب نبطىّ و سلمان ايرانى و عمار عربى و .. فتركوا عشيرتهم و قبائلهم و دخلوا فى حصين الاسلام

فانهم تمسكوا به فتشرفوا بواسطه الاسلام على العالمين فأذهب عنهم التميز العنصرى حيث كان هتاف الجاهليّ قال رسول الله ﷺ (ص) : كل نبي بعث فى قومه خاصه و بعثت أنا إلى كلّ أحمر و أسود و أنّ بلالاً أوّل ثمار الحبشه و أنّ صهيباً أوّل ثمار الروم.

و قال على (ع) : السباق خمسة فأنا سابق العرب و سلمان سابق فارس و صهيب سابق الروم و بلال سابق حبش و خبّاب سابق النبط.

و هذه النظرة توجب الاتفاق و الاتحاد فى كلّ جيل و عصر و مكان، وكلّ من المسلمين و المؤمنين يحسّ الأخوة الالهية فيما بينهم و يحبّون البعض ، يتجسد هذا الحب الالهى فى تعاملهم و مساهمتهم فى القضايا الاجتماعيه و السياسيه و الاقتصاديه.

قال رسول الله ﷺ (ص):مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم و تعاطفهم، مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى.

كأنّ النبى - ص- دعا المجتمع الاسلامى الى وحدة بحيث يسير المجتمع فى جسد واحد و نهى عن التفرّق فى أيّة صورة و أيّة هيئة لأنّه يشلّ حركة المجتمع المسلم و يوهن المسلمون و الأحرار فى كل بلد و يضعفهم .

الدعوة إلى الوحدة فى بداية الرسالة

إنّ النبى (ص) بدأ بدعوته الالهية قبل هجرته و عرض نفسه على القبائل حينما كان المعارضون اكثر من الموافقين و الفرقة قاصية عليهم فكل قبيلة تحاول الغلبة على الاخرى فالأوس و الخزرج يتقاتلون سنوات عديده فشدت الحرب بينهم بحيث تفرّق جمعهم و تشتت شملهم .

حينذاك جاء ممثّل كل واحد منهم إلى مکه لكى يعقدوا حلفاً و ميثاقاً ليعين الفريش الاوس و الخزرج فعلم النبى -ص- ذلك فرأى أن يستمعوا إليه بدل أن يعقدوا ميثاقاً يزيد العداوة و البغضاء بينهم و يورثها و لا يطفئها فدعا كل قبيلة إلى الاسلام الموحد لصفوفها و تلا عليهم القرآن الذى كان رحمة للعالمين ، فلقاؤه مع هذه القبائل كانت فى مرحلتين.

١- بيعة العقبة فى عام الثانى عشر من البعثة - سنتان قبل الهجرة- بعد مجيئهم عند النبى - ص-

دعاهم الى معرفة الله و عبادته و طاعته و الالتفات إلى المحاسن و الابتعاد عن سوء الأخلاق قال بعضهم لبعض يا قوم تعملون و الله أنه هو النبي الذي توعدكم به اليهود فأجابوه فيما دعا إليه و صدقوه و قبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام و قيمه العاليه فجاء في ميثاق النبي -ص- ما نقله عبادة بن صامت و هو أحد أعضاء الوفد قال :

كنت فيمن حضر بيعة العقبة و قد بايعنا الرسول على أن لا نشرك بالله شيئاً و لا نسرق و لا نزنى و لا نقتل أولادنا و لا نأتى بهتان نفتريه بين أيدينا و أرجلنا و لا نعصيه في معروف.

و كان الوفد مركب من الأوس و الخزرج ترأسهم سبعة من الخزرج و خمسة من الأوس حسب عددهم و كان الوفد المكوّن اثنى عشر نفرًا ثم بعث الرسول معهم مصعب بن عمير إلى يثرب ليعلم أهلها الاسلام و يقرئهم القرآن الكريم و لم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب يثرب تصمّ فريقاً ممّن دخل الإسلام على يد مصعب.

ترك النبي -ص- في هذا الميثاق الدخول في القتال او مساعدة جهة من الجهات المفارقة بين الأمّة و العرب ، فسميت هذه البيعة ببيعة النساء أو بيعة العقبة.. فهذه ما وقعت في العام الثاني عشر من البيعة الموافق ٦٢٣ ميلادى.

٢- بيعة العقبة الثانية سنة الثالث عشر من البيعة.

قدم وفد من يثرب إلى مكّة عدده ثلاثة و سبعون رجلاً و امرأتان ، هم أقاموا في العقبة الثانية حتى قابلهم الرسول (ص) و معه عمه العباس بن عبد المطلب -كان على دين قومه - بدأ بالحديث فقال : يا معشر الخزرج أنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم و قد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزّ من قومه و منعة في بلده و إنّّه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم و اللحق بكم فإن كنتم ترون إنّكم وافون له بما دعوتموه إليه و ما نعوه ممن خالقوه فأنتم و ما تحملتم من ذلك ، و ان كنتم ترون أنّكم مسلمّوه و خاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن دعوه فإنّه في عزّ و منعة من قومه و بلده.

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت فتكلّم يا رسول الله -ص- فخذ لنفسك و لربك ما أحببت. قال الرسول - صلى الله عليه و آله و سلم - بعد تلاوة آيات من القرآن و دعوتهم إلى الله و ترغيبهم إلى الاسلام:

"أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم و أبناءكم".

قال البراء بن معرور : نعم و الذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع به أزرنا - فبايعنا رسول
ال - ص- فنحن و ا أبناء الحروب و أهل الحلقة ورثناها كباراً عن كبار. - ولكن اعترض ابو الهيثم بن
اليتهان البراء قائلاً : يا رسول ا ان بيننا و بين الرجال حبلاً و أنا فاطعوها (يعنى اليهود)
فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك ا أن ترجع إلى قومك و تدعنا .

فابتسم رسول ا - ص- و قال : بل الدم الدم و الهدم الهدم (يوضّح ابن هشام كلمة الرسول و يقول
معناه : الحرمة أى حرمتى حرمتكم و دمتى دمكم.)

ثم اتفق الرسول-ص- على أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيباً يمثلون قومهم.

فاختاروا تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس ، و هم اجتمعوا لبيعة الرسول -ص- حينذاك اكّد العباس
مرّة أخرى على الميثاق و البيعة قائلاً : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا
نعم قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر و الأسود من الناس فإن كنتم ترون إنكم اذا انهكت مصيبة و
أشرافكم قتلا اسلمتموه ، فمن الآن فهو و ا إن فعلتم خزي الأموال و قتل الاشراف فخذوه فهو خير الدنيا
و الآخرة . قالوا فإننا نأخذه على مصيبة الاموال و قتل الاشراف فمالنا بذلك يا رسول ا إن نحن وفينا
بذلك؟

قال (ص) : الجنّة . قالوا ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه ثم عادوا نقيباً الخزرج و الأوس إلى يثرب و
أظهروا ، الاسلام فاسلم بها عدد كثير من سادات بنى سلمة و أشرافهم.

فعرفت هذه البيعة -بيعة العقبة الثانية - ببيعة الحرب لأنّ الرسول -ص- بايعهم على أن يحاربوا معه
الاسود و الأحمر و... و عدهم الجنّة. فنرى أنّ البيعة بينهما هى توحيد الصفوف تجاه العدو و قبول
المواثيق المتفقّة بينهم لكى يعملوا كل طرف من الجانبين على مواثيقهم فى المستقبل فى مدينه يثرب.
بالحقيقة تكوّنت الوحدة فى عهد الرسول -ص- فى مرحلتين .

المرحلة الاولى : الوحدة فى القضايا الفكرية و العقائدية التى تسوق الإنسان إلى ربه و خالقه و
هى سبب تأليف القلوب و تقريب النفوس و تعاضد الناس بعضهم بعضاً بحيث يحولهم إلى جسد واحد و يد
واحدة إذا اشتكى عضو منها تداعى سائر الجسد فإنّ النبى (ص) أوجد هذه الوحدة الفكرية و
الإيدئولوجية فى مكة المكرمة منذ ثلاثة عشرعام. و من ثمّ نرى انّ جميع السور المكيه تدور حول

الامور الاعتقاديّة يظهر فيها فساد عقائد المشركين و ضلال تصوراتهم و قبح عاداتهم و سوء النظام الاجتماعى و الاخلاقى و كانت فى نفس الوقت تحثّ الناس على عقيدة التوحيد التّى هى حقّ ا - عزّ و جلّ - على عباده لما فيها من صحة العبادة و التمسك بتعاليم الاسلام التى تدعو إلى مكارم الاخلاق و سّمو المبادئ التّى تمهّد إلى سعادة الدارين.

المرحلة الثانية : الوحدة و التضامن فى العمل و الفروع التى تترتب على الفكر الاسلامى من الجهاد و الدفاع تجاه العدو كما صرح النبى -ص- بها فى بيعة العقبة الثانية و الالتزام بأمر آخر كالصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و غيرها من الأمور العباديّة و الأخلاقيه و السياسيّه ، التّى يحتاج المجتمع الاسلامى إليها و يكون قوامه و سلامته بالعمل بها .

أشار النبى - ص- إلى هذه المرحلة فى بيعته مع نقيباء الخزرج و الأوس قبل هجرته إلى المدينة و المسلمون تنفذوا أمر الرسول -ص- فى المدينة بعد رجوعهم إليها ، فتكونت الوحدة الاسلاميّة فى المرحلة الثانية حينما أراد الرسول - ص- أن يهاجر إلى المدينة مع أصحابه .